من الأدب الروسي

أنطون تشيكوف

الكاتب الروسي العالمي

[من كتاب «رجال القصة الروسية الحديثة» لجورج برس]

للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول : «بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض ، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة ، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء . لا يطلب الانسان من الأرض قيد أقدام ، ولا يطلب مسكناً ، وإنما يطلب الأرض بأسرها ، والطبيعة بجمعها ، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته ؟ »

هذا ما قاله — تشيكوف — من أبحاثه ورسائله حين دخل الحياة الأدبية . ولد سنة ١٨٦٠ ، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً مشهوراً ، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية ، ويستهويه عامل الأدب . فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف ، وكان يؤجر عليها ، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة . وقد جمعت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا ، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم ، دون أن تنطوي على فلسفة معينة ، أو غاية معلومة . لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه ، واتسعت آفاق عقله ، فترك ذلك الجو الصبياني ، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية ، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة . أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية ، هذه الحرب التي كان غنمها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصول إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير . لكن هذا الأمل تحطم ، وهذه الجهود ذهبت عبثاً ، لأن الرجعية قد ظفرت ، وبظفرها طارت الأحلام ، فسرا النفوس شيء من الذهول أو التخدير ، ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيماً ، ووشكان ما دب في هذه القلوب النشيطة دبيب اليأس والعجز ، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه ، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل ، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعلة يشفى . وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم ، حاملاً معه الكآبة . هذه هي المشاهد التي وقف عليها — تشيكوف — براعته ، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء .

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية : «ليس لي من العمر إلا ست وعشرون ، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية ، خالياً من أي غرض ، وكل شيء فيه باطل زائل . تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة «سخالين» مع حياة ساكن «بنس» ؛ والفرق بين دماغ «كانت» ودماغ ذبابة ما ليس له قيمة حقيقية ، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب »

وفكرة — العدمية — بكل ظواهرها الرائعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف ، وأقصوصة «القبلة» ليست إلا وجهاً من هذه الظواهر . فالعريف «ريابوفيت» بتأثير قبلة غير مقصودة لبث يحلم بالحب طوال صيف ؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جميلته المجهولة ، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً ، إذ لم يكن هنالك أحد ينتظره . وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تتفجر من قلبه : «الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد ، ولا لماذا . إنه يفر على الحالة التي مر بها في أيار الغابر . إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير ، ومن النهر الكبير إلى البحر ، ثم إنه تبخر واستطار ، ثم استحال مطراً . فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني ؟ ! ما غاية ذلك ولماذا ؟ ! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا العريف لغزاً معمى لا يدركه العقل ، تمشي على غير غاية ، ضائعة بدون قرار

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة ؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده ، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث :

في الحقل أو المصنع أو الطريق . وهو بعد ذلك لا يستقر في موقف ، ومهما كانت المواطن التي يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للحبة الضالة فتى كثير الأحلام ، يمنع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة . قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملي يلائم مثله الأعلى الذي يراه ، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته ، هو يحب ابنته ، ولا يفتأ يردد اللوم لها على كثير من العيوب في حياتها القلقة . في أمسية ساهرة ، وجدت امرأة أيم — هذه الفتاة العابسة الشاردة ، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة ، وفي هذه الساعة تحدث الأيمان وشكا كلاهما للآخر ما عنده ، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها ، وما ساقه إليه القدر ، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل عليها بقلبه وعاطفته . حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً ، وإنما لأمر يريده في الجمع بينهما ، وفي الغد ركبت المرأة العجلة ، وكان يساعدها على الركوب ، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التي يجب أن تجمع ما بينهما ، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة . انطلقت العجلة ولبث الرجل جامداً كالتمثال . ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق المهدة التي توارت عليها السعادة التي فرت من بين يديه منذ قليل

وقصة « النارة » تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التي تنزو بجأة نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق . فالطالب « كاسيايف » وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التي كان يكابدها ؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان . فكان يصيح آخذاً برأسه : « أحياء ... أحياء ... لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أن في هذا شراً ، ولكن — هنالك — ليست المصابيح هي التي تحطم ، ولكن حيوات الخلائق البشرية . . . أحياء » ثم أخذ يفكر في وسائل استنقاذ هؤلاء المنكوبات ، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر : « إلى أين تمضي ؟ ولماذا ؟ إخش الله ! » لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه ، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه ، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله ، وإنما كانوا يمرون غير ملتفتين إليه . فأحس الطالب أن عقله يفلت منه . فقهقهوه حتى إذا ما شفي مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى ، وخجل منها ، وهكذا حطم مذهبه ، وخنق حلمه

في الأوساط الاجتماعية ، وصنايع العمال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب المطلية والمظاهر الكاذبة . فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لنيرها . الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة ، ولا تدع للإنسان — على الأغلب — رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغير منها . وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة ، هذا السائق المعدم فقد ولده فلم يأنس في نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة . ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها . ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه . وفي يوم من أيام عمله ألفى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها : « نعم يا فرسي الصغيرة ! إنه مات ولدي الحبيب ، وتوارى سريعاً من دون علة . لنفرض أن لك مهراً ، وهذا المهر مات على حين غرة ، ألا يؤلمك فقده ؟ » أما الفرس فقد رنت إليه بعينين هادئتين لامعتين ، ونفخت من أنفاسها بين يدي صاحبها الذي آلمه قصة موت ولده

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة القروية التي تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية . ومن ذلك « القرويون » . فنيقولا خادم في أحد فنادق « موسكو » ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله . وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدي الأطباء والصيادلة . وعند ما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته ، لأنه يؤثر إذا فاتته الحياة أن يموت على مرأى من أهله . لقد ترك القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك . عاد هو وزوجه وابنته ، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما في هوان وفاقة ، وألفى أن الأسرة كلها تأوي إلى زريبة مظلمة قذرة يرن في أجوائها الذباب ؛ فأدرك أن بقاءه في موسكو كان الأجدر به ، ولكن هذا أمل خادع لأنه لا يملك أجر العودة . إذن يجب البقاء في هذا المعهد الذي اختاره . وهكذا استقبلهما هو وزوجه حياة كلها تعب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والمواقف بدون نهاية . إنه يريد أن يعود ، لأنه مل هذا الوجود ؛ ولكن أنى له

المـال ؟ فزادت صحته سوءاً على سوء ؛ فوعده صاحب قديم بشفائه ، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه . وقضت زوجه من بعده عشاءها في القرية مع ابنتها . فأسرع دبيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذي كان يحار فيه ماء الشباب ، ومالت قامتها ، وتبدلت حالتها . ومن ذا الذي يبقى على الهم ؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوران ضريح فقيدها، ثم تطوفان سائلتين في الطرق ! وتشيكوف نفسه يقول : « إن حياة عمالنا هي سوداء تمشي في طريق الفسق ، أما حياة الشعب : عماله وفلاحيه ، فما هي إلا ليل مدلهم ماؤه الجهل والفقر والإثم »

* * *

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية ؛ وهو ليس بذي طبيعة هجائية ، لأن كتابته يغمرها العطف العميق . وهو لا يسخر من أبطاله ، وإنما يشفق عليهم . عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الممدوح ليس إلا قناعاً . وقد قال ناقد فيه : « إنه قلم ذو حنان » وهو في قصصه ينبوع فياض ، لا ينفذ له موضوع ، ولا يفتر له تحليل برغم بساطته . وهو لا يُعنى بالأسهاب الكثير ، والاستطراد البعيد ، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحي من الموضوع .

جرب تشيكوف الكتابة المسرحية ، وله منها القوي المتين ، ومن ذلك مسرحية « الأخوات الثلاث » . هؤلاء كن يقضين حياتهن في بلدة حقيرة تبعث على السـأم ، خالية من الرجال اللامعين ، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم ، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً . وكان حلم هؤلاء السفر إلى موسكو ، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء ، فلبثن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات في مواضيعهن . وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند ، فاجت فيهن الحياة ، وكان لهن حوادث حب مع الرؤساء دامت حتى يوم الرحيل .

قالت الـكبرى : إنهم رحلوا . . . سنبقى وحدنا ! والحياة الماكثة ستبدأ .

فقالت الثانية : إنما يجب العمل ، لا شيء يعزينا إلا العمل !

وقالت الثالثة معانقة أختيها في حيث راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل : يا أختيّ ! إن حياتنا لم تنته بعدُ إننا سنحيا .

هذه الموسيقى تصدح طربة... رويداً رويداً ! إنني أحس به ... سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم !

هذه ناحية قوية من نواحي فلسفة تشيكوف البسيطة ، وهي بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم ...)

* * *

إن تشيكوف في الحقيقة منحة الأدب الروسي ، وغرسة لم تتعهدها إلا تربة عرقه . ففي نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوي ؛ وفي ميله إلى شراء الماضي بالألم يلوح وجه « دوستوفسكي » كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره .

ويشبه تشيكوف من نواح عدة « موباسان » و « إبسن » لـكنه لا غموض ولا إبهام فيه ، لأن الغموض النرويجي لا يلائم روح الأدب الروسي الذي ينزع إلى مجابهة المسائل الملونة في الحياة مجابهة صريحة عنيدة . ولقد حار في تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب « خلي » لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التي برزت في بعض آثار غيره ، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل في شيء من الحياة الروسية ، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أثاثاً ورئياً

ولعل في الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا في توضيح صفات هذه الشخصية الفذة ، ومما يقوله : « إنني أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور ، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا فيّ محرراً أو محافظاً ... إنني لست من ذلك في شيء ... لست بالمحرر ولا بالمحافظ ، ولا بالراهب ولا بالخلي ، وإنما أنا رجل أمقت الـكذب والسولة في أي مكان وتحت أي مظهر ... لا أريد أن أكون إلا فناناً ... وهذا كل شيء » ولكن هذا الفنان الحر الذي أبغض الـكذب والسولة في المعنى الذي تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للانسان بأوسع معنى للتحرير ، ولم يكن بذلك المتشائم الذي نعتوه ، لـكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى ، ويوقظ بكتاباته الأمل في الخروج من غسق الحياة التي وصفها . وقد تبدى في بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية ، فيقول في محاورة له لبستانه : « أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً

وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة ! » وهو الذى يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية « وينبغى للانسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما فى الطبيعة ... إننا أكوان سامية عظيمة؛ وحين يتسنى لنا أن نعرف كل قوى العبقرية البشرية نغدو قرناء الآلهة »

لكن هذه الآمال الكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان فى كل زمان ومكان ، فهل تأتى ذلك منه بطريق المناقضة؟ نقول : لا ، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة فى تقدم الانسانية فانه ليتألم ، ويمته على الألم تشاؤمه الأسمى النزاع إلى السمو ؛ هذا التشاؤم الإنسانى تجاه ما يخور العقل أمامه عجزاً ، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت

يقول أحد أبطاله : « إنى إذا ما خشيت الحياة ولم أفهمها ، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب . وأتأمل طويلاً فى حشرة ولدت فى مطلع الليل ، لأتفهم شيئاً من وجودها . يخيل إلى أن حياتها ليست إلا سرحلة من الرعب والذعر ، فيها أرى نفسى ، وأتمثل خاطراتى ... كل شىء يروعنى لأنى لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء . لا أفهم شيئاً ، ولا أدرك أحداً . . . أما أنت فاذا كنت تفهم فأحر بى أن أمقتك ... »

و « حين ينظر الإنسان طويلاً فى السماء الزرقاء المترامية ، فالأفكار المتهشة والنفس تتحد اتحاداً خفياً فى عاطفة عزلة عميقة ، وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة »

إن هذا اليأس الشامل ، وهذا الشقاء الذى تحدث عنه تشيكوف يتمثلان فى آثار كل الشعراء والفنانين الروس البارزين . ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجسدة ، ولم يحمل فؤادها متسوراً بهذا اليأس !

على أن تشيكوف - بما أوتى - رأى وأدرك وجهى الحياة : وجه تقدمها التاريخى والاجتماعى ، ووجهها الآخر الذى يحيط بها من كل ناحية : هـذا الوجه المظلم المجهول القائم تحت أنفاس الموت الهاردة

« حلب » خليل هنداوى

فى أول العام الهجرى

تصدر الأنصار فى حجم أكبر ومادة أوفر

الاشتراك السنوى : ٢٠ قرشاً وللمعلم الالزامى والطالب ١٥ قرشاً

المكاتبات بعنوان : « الأنصار » شارع البستان رقم ٢٤